مكانة المجاذيب عند المجتمع التطواني خلال القرن التاسع عشر

الدكتور حسن أكدي

المغرب

الملخص

يحاول المقال تناول ظاهرة اجتماعية تغلغلت وتنامت بشكل ملفت بالمجتمع التطواني خلال القرن 19م، والذي تميز بانهيار مؤسسات السلطة وتفسخ اجتماعي تفشى وانتشر بشكل مخيف بمختلف مناطق المجال التطواني.

وفي ظل غياب إجابات وحلول من طرف المخزن وأجهزته التجأ قطاع واسع من شرائح المجتمع الفقير والمنهك للبحث عن بدائل كفيلة بتحقيق احتياجاته من استشفاء، وطعام، ولباس...، وغيرها.

وهنا تبرز فئة المجاذيب الذين عدوا آنذاك ملجأ للمستضعفين والمحرومين لانهم امتلكوا كرامات عبرها تتحقق كل آمال المحتاجين والمقهورين في زمن امتاز بالقسوة وانعدام الأفق.

كلمات مفتاحية: التدين الشعبي، المجاذيب، الكرامات، أزمة مجتمعية، تطوان.

المقدمة

تميز المجتمع الحضري التطواني خلال مرحلة ما قبل الاستعمار بتراتبية اجتماعية، عكستها مجموعة من المصطلحات التي تهم حقل التراتب الاجتماعي، منها مصطلح العامة الذي نعتقد أن دراسته تدخل في إطار مقاربة التاريخ من أسفل، التي كانت ولازالت غايتها انقاذ تاريخ المستضعفين من الإهمال، وإبرازه إلى الوجود.

هذا التغييب الذي ميز معظم شرائح العامة ضمن الكتابة التاريخية في مختلف الحقب كانت وراءه أسباب متباينة ومتداخلة، جعلت العديد من الباحثين اليوم يعكفون على دراستها، وبالتالي بناء مقاربات منهجية وعلمية تصبو لتحقيق دمقرطة للتاريخ المغربي.

لذلك فإن اهتمام المؤرخ بموضوع المهمشين، يندرج في إطار اهتمام أكبر يتوخى تصحيح مسار الكتابة التاريخية بتحويل وجهتها من السياسي إلى المجتمعي، ومن البنية الفوقية للمجتمع إلى بنياته التحتية، فتم بذلك الانتقال من التاريخ المنظور إليه من الأعلى إلى التاريخ المنظور إليه من الأسفل، عبر إعادة الاعتبار لمن لهم دور في تحريك مجرى التاريخ من صناع وحرفيين ومزارعين وباعة متجولين وغيرهم من عامة المدن والبوادي.

إن عودة الكتابة التاريخية لمقاربة موضوعات اجتماعية صرفة كالفقراء واللصوص...، لهو استعادة لتاريخ المجتمعات والذهنيات من أيدي السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين وانتصار لفئات لطالما همشها التاريخ وعاقبها بالتجاهل والنسيان.[1]

من خلال هذا التمهيد وفي ظل السعي إلى إعادة الاعتبار للمهمشين في الكتابة التاريخية سنعمل على رصد الحضور التاريخي للمجاذيب بتطوان الفترة المعاصرة (القرن 19م) عبر إبراز مكانتهم في الوسط الاجتماعي التطواني الذي تكالبت عليه آنذاك الأزمات بمختلف أنواعها.

ونحن إذ نعرض هذا تتبادر لأذهاننا بعض الإشكاليات التالية:

- ماهو السياق الاجتماعي الذي أفرز ظاهرة الجذب بتطوان القرن التاسع عشر؟
- أين برزت مكانة المجاذيب في الوسط المجتمعي لتطوان؟

أ. السياق الاجتماعي لبروز المجاذيب بتطوان القرن التاسع عشر

نجد عند وسترمارك westermarck – حسب الباحث محمد زوزيو– فيما يخص وصف هؤلاء أنهم أناس فقراء، وبسطاء، و ورعون، لا يدرون ما يفعلون. المجاذيب يقولون أشياء لا رابطة بينها ولا علاقة لها بلغة الناس. تنطق أفواههم بأصوات لا معنى لها وتتغير سحناتهم في كل لحظة، فتارة تجدهم فرحين مرحين، وطورا حزينين مقهورين على غرار المصابين بجنون الهوس، يبكون، ويضحكون ويتنهدون من حين لآخر.

وبالرجوع إلى أنفسهم لا يدرون من أين أتو. إنهم يجهلون فيما إذا كانوا داخل أجسامهم أو لا، فيما إذا كانوا يقظين أو نائمين، وينسون ما رأوه وسمعوا وقالوا أو فعلوا. وإذا بقيت عندهم فكرة عما حدث لهم فهي شبيهة بانطباع غامض يخلفه حلم رائع[2].

الغريب أنه رغم ما يميز هؤلاء من بؤس مادي، وغياب العقل أحيانا، وممارسة سلوكات غير مفهومة، فجون وندوس في مشاهدته لتطوان يستغرب وهو يسجل بدقة طبيعة العلاقة الخاصة التي تربطهم بالمجتمع التطواني، إذ يؤكد على تقديسهم « كأولياء أو كمختارين من الله، ولذلك تجد جميع الحمقى يتمشون مطلقي السراح، والناس يقبلون ثيابهم ويقدمون لهم كل شئ، ما عدا النقود التي يجب عليهم أن لا يقبلوها، وبعد موت الواحد منهم، إذا سمع أحد الشخصيات البارزة عن شهرة ذلك المجذوب، يبني له ضريحا كدليل على تقديسه له، وإذا لم يكن للمجذوب ضريح، فإنهم يبنون له قبة في أي مكان، ويعتبر إذ ذاك من الأولياء »[3]. نفس الملاحظة يسجلها ماركوس بيرغ بخصوص هؤلاء قائلا: «ويدخل في الأولياء حتى المجانين والمعتوهون والمهتاجون، فهم ينتشرون في الطرقات ومعظمهم عراة، أو لابسون من الأسمال، ولا يكادون يستطيعون الوقوف على أرجلهم، وهم في مناداة وصياح على المارة وقفز وغناء. والناس يعتبرونهم قديسين وأنبياء. وهم لا يعيشون إلا على التسول والسرقة والنهب، ويظلون في تسكع يضربون طولا وعرضا في أنحاء البلاد.

فإذا توفي أحد هؤلاء الأولياء قاموا بدفنه داخل المدينة أو خارجها، حسب الأهمية التي يجعلونها له. ثم يقيمون عليه ضريحا ويجعلون فيه قنديل زيت يظل موقدا على الدوام، ويعتبرونه هو الآخر شيئا مقدسا»[4].

فلا يختلف اثنان هنا، أن مثل هذه العلاقة الحميمية تواترت خلال القرن التاسع عشر والتي ميزت شرائح عدة من المجتمع التطواني خاصة الدنيا اتجاه المجاذيب، فهي مظهر من تغلغل التدين الشعبي في صفوف العامة والنخب.

هذا الواقع التاريخي يدفعنا هنا أن نتقاسم مع أحد الباحثين الذين حاولوا مناقشة الهوية والتدين والثقافة في تاريخ

المغارب* تناسل بعض الاستفهامات التي تطرح نفسها حول مثل هذه الممارسات التي تصنف ضمن التدين الشعبي، ومنها: ألا يمكن اعتبار أن الإيمان بمثل هؤلاء شكلا من أشكال تعقل مجتمع المجال التطواني للدين ووظائفه؟ أليست ممارسات التدين الشعبي أحد السبل التي وفرت الخلاص الجماعي ومثلت أداة للإفلات من الوضع المأزوم؟ هل يمكن اعتبار مثل هذه الاعتقادات فشلا صريحا لمشروع النخب العالمة التي عملت جاهدة على الحفاظ على نقاوة الدين الرسمي للجماعة في توفير إجابات وحلول لذلك الواقع المأزوم في مختلف ميادينه؟ ألم تتحالف تلك النخب في مجمل الأوقات مع السلطان لتخدم مصالحه نظير إهمال مطالب العامة وحاجياتهم لا فقط المادية بل حتى الروحية؟ ألم يوفر هذا الصنف من الاعتقادات الراحة النفسية والسكينة لمجموعات بشرية ضخمة أنهكها العسر الاقتصادي وجور الولاة والأخطار الخارجية علاوة على الأوبئة والكوارث الطبيعية التي تأتي بين الحين والآخر على الأخضر واليابس؟

فيما يبدو أن مرحلة القرن التاسع عشر اتسمت بانهيار شمل كافة المستويات وأصبحت القيم الجماعية تعيش أزمة ترجمتها سلوكات بدعية، واعتقادات وإيمان بالخرافات ترسخت بقوة في السلوك اليومي للإنسان المغربي بمختلف شرائحه. بل عم خوف جماعي نتيجة كثرة البلايا وضعف الحيلة لمواجهتها، فسار العوام يبحثون عن خلاص من قسوة ظروف المرحلة، وإيجاد ملجأ يمكنهم من قضاء حوائجهم حتى البسيطة منها. ويزداد القلق والخوف من الشر في الفترات التي تحدث فيها التحولات العميقة في المجتمع، حيث تحتد المشاكل، مثلما حدث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إذ وجد السكان أنفسهم أمام مشاكل مستعصية احتاجت لحلول سريعة. ويشكل المقدس في اعتقادهم أبرز المستغاث به، باعتباره مالكا لقدرات خارقة توفر الاطمئنان. فكان استغلال الجهل من وراء إنتاج العديد من مظاهر المقدس، وانتشار الأفكار الخرافية حولها[5].

في هذا الجو المتسم بالأزمة إذن، برز المجاذيب والبهاليل وكل رجال الأحوال عامة كأمل لكل مقهور، ومظلوم ومحتاج. فترسخ تأثيرهم بقوة في ذهنية شرائح المجتمع، لاسيما وجود مجموعة من الظروف المساعدة على ذلك. ولعل أبرز هذه الظروف ' الكرامة ' التي ارتبطت بشخصية المجاذيب التي تجعل منهم كائنات فوق طبيعية، فهم يرتفعون عن الإنسان العادي ليرتقوا إلى الإنسان الديني القدسي الذي يمتلك خصائصه النوعية الفارقة[6]. أي أن العامل الحاسم في مثل هؤلاء ليس هو النسب، بل قيمة الأعمال المنجزة، ورغم أنهم يحصلون على البركة من الله إلا أن من ينسبها إليهم في الحقيقة هم عامة الناس[7].

وتجنبا للتفصيل في التحليل هنا، فلا شك أن بركة مجاذيب المجال التطواني بالقرن التاسع عشر مفيدة لمعرفة سلطتهم المعنوية، وتأثيرها في المجتمع. لذلك فمعرفة ذلك تقتضي منا استخراج بعض أنواع الكرامات التي ميزتهم باعتبارها ارتقاء من عالم دنيوي مدنس تحكمه المادة، إلى عالم علوي مقدس قوامه السمو والارتقاء عن العوالم الغارقة في أوحال الواقع، وهي

كذلك حصيلة تفاعل اجتماعي واضح لأنها نتاج اجتماعي وإفراز لشروط تاريخية، وانعكاسات لإكراهات اجتماعية وتجلٍّ لواقع يزخر بالتناقضات[8].

ب. مكانة المجاذيب في المجتمع التطواني من خلال الكرامات

يمكننا مما تضمنته بعض الترجمات التي تتضمنها بعض المصادر، جرد مختلف ما يتاح في هذا الصدد لمجاذيب المجال المقصود من الكرامات، وتصنيفها وتحليلها وفق التالي:

- **الاستسقاء**

من الكرامات التي ارتبطت بتحقيق نزول الغيث، تذكر كرامة المجذوبة لالا طامو والتي حكاها المسمى سيدي العربي مرتيل كما جاء ذكره عند الرهوني قائلا: «احتبس المطر مرة. فأتى الناس القطب سيدي عبد السلام ابن ريسون، رضي الله عنه، مستشفعين في صرف ما نزل. فقال: إن المتصرف الآن في هذا هي السيدة طامو، وقد علمتم قوة حالها فنحتاج إلى رجل لبيب حاذق يذهب إليها بمرتيل، ويستعطفها في هذا الطلب...فركبت البغلة، ومضيت إلى دار مرتيل فوجدتها جالسة بباب دار المخازنية، خارج الدار فوضعت الخبزتين حذاءها، ورجعت خلفها، جاعلا سور الحوش بيني وبينها. وصرت أقرأ سورة الإخلاص، وأهدي ثوابها لها. فمر بها مخزني فنادته قالة:' أرجل، إعطيني نشرب' فملأ لها إناء ماء، فشربت منه، وأهرقت الباقي على الأرض. فتفاءلت بالسقيا، وقمت من حيني، فركبت. فرأيت السحاب ءاتيا من ناحية الغرب. فما وصلت مجاز الشطبة، حتى أرسل الله رحمته على عباده. ولا تسأل عن حالي من البلل والبرد، إلى أن وصلت على تلك الحال إلى مقامه الكريم»[9]. نفس الكرامة امتلكها المجذوب الحسن آقجاوج كما يحكيها جعفر الحاج السلمي عن أبيه قائلا: «وانحبس المطر عن الناس في بعض السنين، واشتد بهم الحال، وضاق عليهم الأمر. فجاء سيدي الحسن آقجاوج إلى الحاج محمد داوود في حانوته بالسوق الفوقي، عند سيدي علي بركة، فقال له: أعطني ريالا، ترى ما عليه حالة الناس من الشدة والبأس. فعزم عليه سيدي الحسن أن يعطيه الريال، وضمن له نزول المطر فالتزم له الحاج داوود بالريال، وحينئذ، اصفر وجه سيدي الحسن، وآغرورغت عيناه بالدموع، وأخذه حال عظيم، فصار يقطع ما بين السوق الفوقي، وبين ضريح سيدي عبد الله الفحل بالمقابر، يمشي ويجيئ بينهما، وهو يقول:

مولانا نسعوا الخبز وعلى الزبدة واقفين
لا من يرحمنا سواك يا أرحم الراحمين.

فما لبث المطر إلا قليلا حتى نزل، فجاء سيدي الحسن آقجاوج إلى الحاج محمد داوود، وقال له: أعطني الريال»[10].

قدمنا هذه النماذج كما حكيت، لكونها تمثل سلوكا اعتقاديا عند العوام يتمثل في أن شخصا يحظى بعطف الله يمكنه الحصول على أي شئ أراده. وبالتالي فهو وسيط ضروري تتوجب استمالته والتقرب منه[11]، والالتجاء له في ساعات المحن والضيق ليقدم المعونة على تجاوزها بطرقه الخاصة. ونفس السلوك يظل ملاصقا للصالح -المجذوب- بعد موته، بل يصبح أكبر مما كان عليه الأمر خلال حياته، فهو آنذاك أقرب إلى الله، حسب العبارة المتداولة، لبى نداء ربه، وتصبح فعالية تدخله يقينية لدى كل شخص[12]. ومن ناحية أخرى، يبين هذا الصنف من الكرامات كيف كان الخوف من المجاعة ونقص الغذاء يعيش في ذهن الإنسان إلى الحد الذي يبحث فيه دائما عن حل تلك المشكلة، فلا تجد أحسن من أن يكلف مجذوبا بعدد من المهام الداخلة في إطار ترك مجال الأمل في تجاوز نقص أو احضار غير المنتظر[13]. وهذه المسألة لا تهم منطقة دون أخرى في المغرب، إذ هي مرتبطة بالمعطيات المناخية الخاصة بالمتوسط، والمتميزة بعدم انسجام الإيقاع الإمطاري، ومرتبطة بعدم تكيف تقنيات العمل الفلاحي مع هذا النوع من المعطيات المناخية. لذلك فشبح المجاعة رابض باستمرار[14].

فمثل هذه الظواهر الطبيعية تفسر لنا لحد كبير مدى خضوع النشاط الفلاحي لتقلبات المناخ، وبالتالي فدور المجذوب يأتي ليمثل الرغبة الجماعية لتجاوز ذلك عن طريق التحكم في المناخ، وهذه القدرة هي التي يمتلكها أو يتمتع بها المجذوب لغيث الناس[15].

- **المكاشفة والاخبار بالمغيبات**

فالمكاشفة يتم الاخبار بها عما فات، بينما الإعلان عن المغيبات تختص بالكشف عن الوقائع والأحداث المستقبلية[16]، ومن ذلك أن المجذوبة شكشم كلُّ «شوهد من كشوفاتها، أنها بشرت صاحبنا الشريف مولاي أحمد ابن سيدي المكي ابن عبد الوهاب، الحسني العلمي، بازدياد ولده سيدي عبد السلام، قبل ولادته، وسمته مولاي عبد السلام، وقبضت منه درهما بشارة»[17]. كذلك عرف أبي الهيادير بتوقعاته للمستقبل بوقوع أحداث، إذ كان «يقول: يوم يموت هو تنقلب تطوان. وكذلك كان الحال، فإنه مات يوم الخميس...فصادف الحال أن العربي أخمال الطبجي، كان يشمّس بارودا في برج قصبة الجبل فاتقدت فيه النار، ثم وصلت لخزين البارود.فقامت فيه النار، وانهدم بما فيه، ومات العربي المذكور. وخافت الناس خوفا عظيما، وصعد الجيش والحدادون وخلافهم لإطفاء تلك النار، وتدارك الأمر قبل استفحاله، فكان الأمر كما قال رحمه الله.»[18]، بينما عرفت باية الجزائرية بالإخبار بالبشارة «وتبشر الحوامل بالذكور أو الإناث، أو بقدوم مسافر أو نحو ذالك، فيقع كما قالت. وربما تطلب من بعض الناس دراهم أو كسوة»[19]. أما المجذوب سيدي عبد الله فقد تنبأ بإنشاء الملاح الجديد بتطوان قبل أن يبنى، وما سيقع لتطوان ولضريحه بعد وفاته «أنه نظر يوما للبقعة التي صارت (ملاحا) حارة اليهود،

قبالة ضريحه بأسفل الفدان قبل أن يبنوه ويسكنوه، فقال: أه. ما أعظم هذه الدمدمة السوداء التي بهاذا الموضع، أو كلاما هاذا معناه، مكاشفة على ما ءال إليه أمر ذلك الموضع. وقال يوما، مسكينة أمي تطاوين. وأما أنا، فهمي بالشبك فكان الأمر كما قال»[20]. إذ بعدما تم احتلال تطوان سنة 1860م جعلوا ضريحه كنيسة ولكن قبره لم ينبش.

هذا النوع من الكرامات يدخل ضمن ما هو محتمل وقوعه وتحققه عقلا بعد مدة زمنية غير معلومة أحيانا، ويكفي أن بعضها مثل الإخبار بنوعية المولود القادم، أو الإعلام بمجئ شخص في وقت ما، دفع بالمجتمع الذي نتكلم عنه بالالتجاء لهؤلاء المجاذيب للتبرك بهم والتوسل إليهم في طلب الإعانة لفك مغلقات المستقبل المجهول عبر فتوح أو صدقة مالية أو عينية قد يطلبها المجذوب كشرط لقضاء الحوائج. وهذا الصنف يعبر في حقيقة الأمر عن عجز الإنسان لتجاوز عدد من الأمور المرتبطة بإعمال الأسباب والعمل على الأخذ بها للتحكم في مسارات الحياة بإكراهاتها ومحاسنها، ومن جهة تعبر عن استحواذ القلق والخوف على نفوس شرائح عدة من المجتمع الذي وجد نفسه محاطا بتعقيدات أزمة عميقة كرست في عقليته يأسا وانهزامية في الإرادة أمام واقع تاريخي متسم بالاختلالات، ولن تكون له أي بشائر قريبة أو انفراجات ولو بعد حين. هذا الاعتقاد الجماعي الكثيف في المجاذيب يفسر لنا درجة وكثرة اللجوء إليهم لأنهم في نظر العديد لهم أسرار وقدرات إلهية عجيبة تحول المستحيل إلى أمر محقق في لمح البصر.

- **التمثل في صورة حيوانات متوحشة أو التحكم فيها**

كثير من الكرامات تتعلق بالحيوانات المتوحشة، تذوب كل مظاهر سطوتها ووحشيتها أمام بركة[21] المجذوب وقواه الربانية الفريدة. فهذا المجذوب سيدي بنكيران «كان معه، رضي الله عنه، حية ملازمة تمشي في بدنه من أعلاه لأسفله، وهو يزجرها دائما ويهدئها بمرأى من الناس ومسمع. فلما قربت وفاته سمعوه يقول: غدرت الكافرة»[22]. بل أحدهم عرف عنه تمثله في صورة أسد «وكان صاحب أحوال، ربما يتطور على غير صورته، فيتطور على صورة السبع، كثر ذالك وتكرر منه مرارا كما حدثني من يوثق به. قال: ...كان ذات يوم ذاهبا لزيارة سيدي طلحة، خارج المدينة، ومعه صاحب فلقيهما رجل، وتعلق بصاحب الشيخ في دين كان له عليه، فطلب منه الشيخ التأخير، فأبى وأغلظ في القول. فانقلب الشيخ على صورة السبع، وزأر عليه، فذهب، إلى غير»[23].

طبيعي في مثل مجتمع الأزمة هذا، أن يتضخم الإيمان القوي بمثل هؤلاء الذين يمتلكون كل خارقة أو قوى فوق طبيعية، لذلك فالبين هنا أن الوعي الجمعي أسهم في بناء قوة كاريزما المجاذيب من خلال إشاعة ثقافة الخوف وتعميقها والعمل على تضخيمها، إذ قدم المجذوب على أن له القدرة على أن يتمثل أو يروض حتى الحيوانات المتوحشة[24] فتشكلت هيبة وتبجيل

اتجاههم تغلغل على ما يبدو في إيمان شعبي واسع ترجم حجم معانات شرائح المجتمع من ضغوطات عدة للمرحلة، كظلم رجالات السلطة، وتفاحش اللصوصية، و تصاعد استغلال وتجاوزات المحميين، فكان مثل هذا التصوير الذي ارتبط بالمجاذيب محفزا للعوام من الناس للاستجداء والتوسل عندهم لمجابهة ظلم الطغاة و إلحاق الأذى بهم ومعاقبتهم على اعتداءاتهم للغير مادامت السلطة عاجزة أو هناك من كان من ذوي النفوذ يكرسها أو يحميها. ومن جهة أخرى، يلاحظ أن الأسد خلاف الأفعى كنموذج له رمزية بالنسبة للمجذوب فهو رمز القوة والأنفة وكل الصفات الإيجابية في الطبيعة. ويعني تمكن المجذوب من تسخيره والتحكم فيه وتكليفه بمهام الحماية أو أدوار تتجاوز الإنسان لضعفه، فهو عنيد وجبار ضد كل متسلط يهدد أو يسلب ممتلكات الغير.

- **القدرات الفائقة للجسم**

نال بعض المجاذيب قدرات جسمية هائلة جعلت بعضهم يفرط في الأكل، كأبو هيادر، «لقب رجل من أولاد الكرفطي، اسمه الطاهر. وكان كثير الأكل، حيث إننا شاهدناه يأكل مخفية من الإسفنج، ويشرب قلة صباغية من الماء. وهاكذا يصنع بغيرها من الماء والأطعمة»[25]. الحال نفسه مع المجذوبة شكشم كلُّ «كانت تقطع وادي كيتان، وهو حامل، لا يقطع إلا بالقارب»[26]. وتعبر مثل هذه الكرامة عن مشكلة المعاناة من الفصل الدائم الذي تمثله المجاري المائية في كثير من مناطق المجال بين السكن وأرض الإنتاج الفلاحي أو بين مركز المجال حيث الأهل وسلع بعينها لا تتوفر في جهات أخرى، وفضاءات قبلية كانت ذات علاقات تكامل اقتصادي به أو عن الفصل المؤقت الذي قد يطول عندما تفيض مجاري مائية بسبب شدة الأمطار. وهذا تعبير عن واقع أزمة البنية التحتية المواصلاتية بالمجال حيث كانت تنعدم القناطر والجسور الرابطة و المسهمة في تسهيل التنقل، وهو ما يفسر مظاهر الاحتفاء الكبير أثناء إنجازها إذ يحسب ذلك من بين المآثر المسجلة في سجل إنجازات السلطان. وهذا الافتقار الواضح لضروريات التنقل بين جهات المجال يرتبط دون شك بمثل هذه الكرامة.

كذلك فيما يتبين امتلاك بعضهم القدرة المتنامية على الجنس، ويمثلها هنا المجذوب سيدي الحسن بن محمد العمراني «وكان كثير التزوج والطلاق، يأخذ الإماء والعجائز وما وجد. ثم لا يلبث أن يطلق»[27]. وفيما قد نفهم من هذا، أن مثل بعض الشرائح المهمشة كالإماء وخصوصا ذوات البشرة السوداء لم يحظين بالزواج لموقف مجتمعي ربما منهن بسب لونهن أو عدم وجود صفات الجمال والجاذبية الأنثوية فيهن، وهو ما كان يعرضهن للعنوسة والحرمان من التمتع كباقي أقرنهن من الجواري الحسان ذوات البشرة البيضاء اللواتي كن مفضلات عند الرجال من ذوي الجاه والمال، للتسري بيهن وأحيانا يتم إنجاب أبناء منهن ويصبحن حرات لهن مقام اجتماعي كباقي الحرائر.

- **مواجهة الأذى والانتقام**

امتلك المجاذيب كرامات القدرة على من يلحق الأذى بهم إذ يكون العقاب فوريا وقاسيا اتجه أولئك الذين تجرؤا عليهم، أو استهزؤوا بأحوالهم. فهذا سيدي حمَّان «أن رجلا من أولاد الحمود، لطمه على خدّه، فأصابه في الحين وجع الأضراس، ثم خرج عقله. وبقي كذالك إلى أن قتل في كدية سيدي أبو حجل. (كذا) ونعوذ بالله من الجسارة على أولياء الله»[28]. مكانة المجاذيب بالمجتمع خاصة الذين عرف عنهم التفقه والتمكن من معارف دينية، وبالذات المنتمين منهم لإحدى الطرق الصوفية يبدو أنهم واجهوا معارضة شديدة من جهات كانت تعتبرهم خارج الإسلام النقي، فحاولوا مهاجمتهم ومحاصرتهم لدرجة إذاياتهم وهو ما انطبق على المجذوب محمد بن البشير الريسوني النقيب «وقد ظن بعض الجاهلين معارضته ومعاندته، فانتقم الله له منهم أشد انتقام»[29]. واعتبار الناس أن هؤلاء منبع كل فيض من الخير، دفع بالعديد من الشرائح البئيسة التي كانت ذات حجم واسع حقبة القرن التاسع عشر، نتيجة انتشار الفقر، إلى تصيد بعض المجاذيب فيما يجمعونه من أموال تعطى لهم من ذوي الإحسان أو من خلال ما عرف عن بعضهم جمعه عبر كتابة بعض الرقى أو التعاويذ لمن يقصد فيهم نية الشفاء أو بركة رواج البضاعة وغيرها. ومثل هذه السلوكات كانت تدخل في إطار التقليل من مقام المجذوب و الاعتداء على رزقه الذي هو من عرق الجبين وفي احتياج له يوظفه في توفير بعض الضروريات الخاصة به و لأهله إن كان متزوجا، ولذلك كل من تبعه من أولئك البؤساء الذين تعودوا على السؤال منه للحصول على ما جمعه المجذوب أو أخذه بحيل ما يكون عرضة للفقر والعوز طيلة حياته. وهذه الكرامة ميزت سيدي أبو جمعة «وكان يكتب للناس الحروز، يكتب فيها ءايات القرءان الكريم، حتى ينفذ الكاغد الذي بيده، ويقبض عليها الفتوحات، كما يجمع الفتوحات من أرباب التجارات والصناعات وغيرها، ويعطى ذلك كله لبعض من كان يتبعه من البؤساء. وكأنما كان يعطيهم السم القاتل، فإن ألائك الأتباع الذين كانوا يقبضونها منه، لم يفلح واحد منهم أبدا والعياذ بالله. وكانوا يلحون عليه في قبضها من الناس. وربما خوفوه بالحية وشبهها لينهض لجمع ذلك لهم»[30].

- المنح والعطاء

من الكرامات التي عرف بها المجاذيب هو قضاء حاجات من يؤمن ببركاتهم، لذلك تحفل بعض ترجمات بعضهم بذلك. فرغم فقر المجذوب محمد الهرموش الذي كان «يتعيش من عطاء بعض أهل المحبة»[31]، فإنه تميز بشدة إلحاحه على بعض الناس بضرورة تقديم هدية له لأنها ستجلب الخير لهم «إلا أن يكون فيه مصلحة للمعطي، فإنه ربما يلح عليه، حتى يأخذ منه الهدية»[32]، بالتعفف والإلحاح نفسه، عرف كذلك المجذوب محمد يعلى وعبر صدقة تقدم له اشتهرت بمخطافو كان يلح

في طلبها «إلحاحا، ويدعو له بدعوات كثيرة، من خيرات الدنيا والآخرة، حتى يستخرج منه تلك الصدقة. فإذا أخذها، قال لصاحبها لابد أن تنوي أنها لله خالصة. ويلح عليه في ذالك»[33]. العطاء والخير نفسه يحصل عليه أحد باشوات المدينة على يد المجذوب عيسى الحاج البقال «فأمره أن يذوق من خمره. فلما ذاقها، وجد لها لذة عظيمة، ووقع له فتح بسببها»[34].

المكانة تلك التي حظي بها المجاذيب بالمجتمع بفضل الكرامات التي تميزوا بها، عززها كذلك بعض العلماء فكان ذلك حاسما، خصوصا أصحاب كتب التراجم. قال العربي الدرقاوي: «فالناس لا ينظرون المجذوب إلا بعين التعظيم، ولا ينظرونه قط بعين الاحتقار، مع أنه لا يصلي ولا يصوم، ولا يفعل شيئا مما أمرنا الله به. لكن لما فقد عقله بسبب شهود عظمة ربه، كانت حقيقة نورانية، ولم تكن – والله– ظلمانية. ومن كان ها كذا، كان والله ولي الله»[35]. ولعل تأليف الزبادي المحب للمجاذيب والبلهاء الذي عنونه بسلوك الطريق أبرز نموذج يحتفي ويبجل هؤلاء، وهذا ما يتضح من خاتمته قائلا: «والسبب في جمع هاذا الكتاب هو لما كانت لي خلطة بالفقراء المذكورين، رحمة الله عليهم أجمعين، وخلطة من بعدهم من الفقراء الموجودين، ظهر لي محبتي فيهم أن أوقظهم من غفلتهم عن السنة،... وذكر سيرتهم وسيرة من تعلق بهم، تبركا بهم، واحتراما وانتسابا لجنابهم، منة وتفضلا وإنعاما»[36].

من ناحية أخرى، فإن رموز الكرامات التي أشرنا إليها توضح أغلبيتها أن مثل المجاذيب أصحاب الخوارق، كانوا في عين فئات المجتمع المسحوق سلطة أعلى من سلطة الحكام. يمتلكون قدرة وطاقات لا تنضب. ولكي تؤكد لنفسها تلك الحقيقة أعطتهم صور خارقة تتجاوز ما هو عادي مألوف. ولا شك أن اللجوء إلى هذه الكرامات بذاك الشكل الذي تذكره المصادر يظهر لنا مدى درجة أزمة مجتمع المجال خلال القرن التاسع عشر.

أي في العموم أن الجذب من خلال حضوره الاجتماعي شكل ظاهرة ترسخت في السلوك الشعبي الثقافي– الاجتماعي للمجتمع التطواني من خلال التمثلات والاعتقاد والإيمان بصلاحه. وهو الأمر الذي شكل سلطة رمزية لها قوة توازي سلطة التدين الرسمي. ومن ثمة يمكن القول إن عدم هامشية الجذب يمكن تحديدها في المكانة التي حظوا بها بين الناس، وبالتفاعل مع المجتمع وقضاياه والخدمات التي قدموها له.

خاتمة:

بناءا على ما سبق، وُجدت خلال المرحلة عدة شرائح اجتماعية تنتمي لقاعدة المجتمع عاشت التهميش ضمن التدوين التاريخي للمجال التطواني، لذلك فاختيارنا للمجاذيب كفئة حاولنا إبرازها في جانب علاقتها ومكانتها بالمجتمع على قدر ما توفر لنا من مادة تاريخية، كانت نموذج لا غير. بمعنى آخر أننا حاولنا إبراز جزء من فئة عريضة من "الهامشيين" كمشروع أولي لسبر أغوار الفئات الأخرى مستقبلا.

من جهة أخرى، يتضح من تحليل هذه الشريحة التي استقر عليها الاختيار والتي عدت جزءا من السواد الأعظم لعامة المجال، أن هناك صعوبات أكيدة في القدرة على سبر مختلف الجوانب الحياتية التي يمكن أن تساعدنا في معرفة واقعها التاريخي خلال مرحلة القرن التاسع عشر. وهذا طبيعي أمام غياب أدب أو مادة وثائقية كافية تطرقت لمثل هذه الشرائح.

وغني عن التأكيد أن حصيلة أزمة المرحلة بالمجال التطواني تمظهرت في بروز مشكلات عويصة ذات طابع اجتماعي، لذلك شكل الجذب، ظاهرة مميزة للمرحلة التي تقتضي استنطاق النصوص التاريخية بدقة لرسم تفاصيل كافية وشافية عن عدة قضايا ترتبط بها.

ولا ننسى بأن تبني منظور جديد في القراءة التاريخية للقضايا الاجتماعية بالمجال التطواني،- في اعتقادنا - جعلنا نثير الانتباه في بحثنا هذا إلى حاجتنا اليوم كباحثين لاقتحام عوالم فئات اجتماعية عريضة همِّشت في الكتابة التاريخية مقارنة بالأقلية القليلة التي تربعت عرش القمة و أعطيت لها مساحات كبيرة في التناول أي إتاحة الفرص في الدراسات التاريخية لكل القوى الاجتماعية بأن نرسم مساراتها بعيدا عن النخب، - من سلطان، و قائد، و وزير، وتاجر، وغيرهم ممن كانوا أهل قرار وسلطة ومال ونفوذ-، كالحرفي، و الفلاح، و الراعي...، ليبرزوا كفاعلين في الماضي لهم أهميتهم في خلق تحولات في حياة مجتمعاتهم.

الهوامش:

[1]- توفيق محمد لقبايبي، حرف الماء في تاريخ المغرب، بين التأصيل والتجديد. دراسة في تاريخ نماذج من الحرف المائية. مؤسسة آفاق للدراسات والنشر والاتصال، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، الطبعة الأولى 2020، ص. 7.

[2]- محمد زيوزيو، ظاهرة تقديس الأولياء وأثرها على الحياة الاجتماعية، تطوان نموذجا. مطبعة آنفو – برانت بفاس، طبعة 2013، ص. 143.

[3]- ترجمة، محمد داود، تاريخ تطوان، مراجعة وتصحيح حسناء داود، منشورات مؤسسة محمد داود للتاريخ والثقافة، مطبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر، طبعة 2013، مج 2، ص. 67.

[4] – ماركوس بيرغ، وصف الاستعباد في مملكة فاس، مذكرات أسير سويدي على عهد السلطان مولاي عبد الله. ترجمة، عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، 2011، صص. 150-151. وللتوضيح بخصوص أحكام القيمة التي يسجلها الغربيون بخصوص ظاهرة الجذب التي ميزت المغرب، ففي جزء منها قد تكون على صواب، إذ لسيادة الفقر وتغلغله في حياة المغاربة دفعت بالعديد من الضعاف والفقراء إلى ادعاء الجذب لما يعتقده العوام فيه من بركات وخوارق، فبرز في عالم الجذب مندسون لا يمثلون منه سوى الخرافات والأفعال والأقوال الشاذة. بل من هؤلاء من أسقط العمل بالقرآن، والدعوة لقطع رؤوس الفقهاء، والتهاون في الطهارة. أنظر في هذا الإطار، التصوف السني في المغرب، واتجاهاته الفكرية والسلوكية. طبع ونشر دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2019، 175-184.

* نقصد هنا عادل النفاتي، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغارب، حفريات من أدب الرحلة- القرن 16، في الهوية والتدين والثقافة. طبع افريقيا الشرق، 2015، صص. 142-143.

[5]– سيدي محمد الكتاني، المقدس في المجتمع الجبلي (1894-1912). دكتوراه في التاريخ، نوقشت بكلية الأداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 2003/2004، ص. 216.

[6]– عبد الإله لغزاوي، مونوغرافية المقدس بمدينة مكناس، مقاربة لظاهرة الأولياء في تجلياتها الثقافية والأدبية ودراسة آليات اشتغال الكتابة. دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2010، ج 1، ص. 194.

[7]– مراد جدي، تحولات التدين الشعبي بالريفين الأوسط والشرقي، الأولياء والصلحاء أنموذجا. بحث لنيل الماستر في التراث والتنمية، نوقش، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، السنة الجامعية 2009-2010، ص. 107.

[8]– مونوغرافية المقدس بمدينة مكناس...، م. س، ص. 196.

[9]– احمد الرهوني، عمدة الراوين الراوين في تاريخ تطاوين. تحقيق جعفر بن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي تطوان، ج 4، صص. 255-256.

[10]– جعفر ابن الحاج السلمي، «أخبار سيدي الحسن آقجاوج التطواني –تقديم وتقييد-» ضمن ندوة تطوان قبل الحماية. (1860-1912). مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي بتعاون مع المجموعة الحضرية لتطوان. نظمت أيام 12-13-14 نوفمبر 1992. كلية الأداب والعلوم الإنسانية بتطوان، مطبعة الهداية – تطوان، ص. 209.

[11]– ألفريد بل، بعض طقوس الاستمطار إبان الجفاف لدى المغاربيين. ترجمة، سمير آيت أومغار، تقديم خالد طحطح، منشورات الزمن، مطبعة بني إزناسن، سلا المغرب، طبعة 2016.، ص. 83.

[12]– المرجع، نفسه.ص. 85.

13– عبد اللطيف الشاذلي، المجتمع المغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، من خلال الآداب الصوفية، دكتوراه في التاريخ نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، السنة الجامعية 1987، ص. 123.

[14]– نفسه، ص. 124.

[15]– نفسه، ص. 125.

[16]– مونوغرافية المقدس...، م. س، ص. 197.

[17]– عمدة الراوين، م. س، ج 7، ص. 44

[18]- نفسه، ج 7، ص. 73

[19]- نفسه، ج7، ص. 74.

[20]- نفسه، ج 4، ص. 153.

[21]- تحولات التدين الشعبي بالريفين...، م. س، ص. 110.

[22]- عمدة الراوين، م. س، ج 4، ص. 128.

[23]- المرجع، نفسه، ج 4، صص. 110-111

[24]- لفهم هذه العلاقة بين الانسان المغربي والحيوان، يرجع لملف بعنوان، من التقديس إلى التوظيف السياسي، المغاربة والحيوانات، مجلة زمان، ع84/أكتوبر 2020، مطبعة سي تي بي إيديال، البيضاء، صص. 32-59.

[25]- عمدة الراوين، م. س، ج 3، ص. 40.

[26]- المرجع، نفسه، ج 7، ص. 44

[27]- نفسه، ج 10، ص. 42.

[28]- نفسه، ج7، ص. 72.

[29]- نفسه، ج 5، ص. 88.

[30]- نفسه، ج 4، ص. 258.

[31]- نفسه، ج 7، ص. 69.

[32]- نفسه، ج 7، نفس الصفحة.

[33]- نفسه، ج 6، صص. 212-213.

[34]- نفسه، ج 4، ص. 105.

[35]- عن رسائل العربي الدرقاوي، أورده عبد الحي اليملاحي في أطروحته، الفكر الديني بالمغرب (1171-1283). دكتوراه في الأداب، نوقشت بكلية الأداب والعلوم الإنسانية بتطوان. السنة الجامعية 2006/2005، ص. 311-312.

36- محمد المنالي الزبادي، سلوك الطريق الوارية، في الشيخ والمريد والزاوية. تقديم وتحقيق عبد الحي اليملاحي، منشورات جمعية تطاون أسمير، سلسلة 13، مطبعة الخليج العربي، تطوان، 2012، ص. 421.